من أخلاق الكبار: ابن هبيرة

الكاتب: خالد السبت

https://murabet.com

تفريغات

وخذ هذا المثال الآخر العجيب العالم الوزير ابن هبيرة -رحمه الله- نال العلم، والفقه، والوزارة معًا، وكان له مجلس حافل بالعلماء من أرباب المذاهب الأربعة، وبينما هو في مجلسه إذ ذكر مسألة من مفردات الإمام أحمد - يعني أن الإمام أحمد تفرد في هذه المسألة عن الأئمة الثلاثة الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة - فقام فقيه من فقهاء المالكية يقال له أبو محمد الأشيري، فقال: بل قال بهذا الإمام مالك، فقال ابن هبيرة - رحمه الله -: "هذه الكتب" وأحضرها، وإذا هي تنص على أن هذه المسألة من مفردات الإمام أحمد. فقال أبو محمد الأشيري: بل قال بذلك الإمام مالك، فتكلم العلماء الذين حضروا هذا المجلس، فقالوا: بل هي من مفردات الإمام أحمد، قال: بل قال بذلك الإمام مالك، فغضب ابن هبيرة، وقال: أبهيمة أنت؟ أما تسمع هؤلاء العلماء يصرحون بأنها من مفردات الإمام أحمد، والكتب شاهدة بذلك، ثم أنت تصر على قولك، فتفرق المجلس، فهب أنك في هذا المجلس، هب أنك أحد الطرفين في مكان ابن هبيرة، أو في مكان الأشيري، ما هو في مجلس علماء، لو كنت أنت، وهذا الإنسان، وليس معكما ثالث، وقال لك: أبهيمة أنت هل

https://murabet.com

ستلقاه بعدها؟ هل ستأتي إلى مجلسه، وتحضر معه؟ ثم لو قال لك ذلك أمام الآخرين، هل تنام تلك الليلة؟ هل تفكر بالرجوع إليه؟

فلما انعقد المجلس في اليوم الثاني جاء الفقيه المالكي، وحضر كأن شيئًا لم يكن، وجاء ابن هبيرة، وجاء العلماء، فأراد القارئ على عادته أن يقرأ، ثم يعلق الوزير ابن هبيرة، فقال له: قف، فإن الفقيه الأشيري قد بدر منه ما بدر بالأمس، وحملني ذلك على أن قلت له ما قلت، فليقل لي كما قلت له، فلست بخير منكم، ولا أنا إلا كأحدكم، فكيف كان أثر هذه الكلمات؟ وهي بالمجَّان لا نخسر عليها شيئًا، تجاوز بس هذه النفس، وتغلب عليها ضج المجلس بالبكاء، وتأثروا جدًا من هذه الأخلاق العالية الرفيعة، وارتفعت الأصوات بالدعاء، والثناء؛ وجعل هذا الخصم الأشيري يعتذر.

ويقول: أنا المذنب، أنا الأولى بالاعتذار، والوزير ابن هبيرة يقول: القصاص القصاص، فتوفق أحد العلماء، وقال: يا مولانا إذا أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير له: حكمه يحكم بما شاء، احكم بما تريد، فقال هذا الفقيه: نعمك علي كثيرة فأي حكم بقي لي، فقال: قد جعل الله لك الحكم علينا بما ألجأتنا به إلى الافتيات عليك، فقال: عليّ بقيت دين منذ كنت بالشام، فقال الوزير ابن هبيرة: يعطى مئة دينار لإبراء ذمته، وذمتي، فأحضر له المال، وقال له ابن هبيرة: عفا الله عنك، وعني، وغفر الله لك، ولي، فهل نحن كذلك؟

إذا كنا في مجلس، وحصلت قضية مثل هذه كيف ستكون نتائجها؟ عداوة إلى يوم الدين، وقلب يتقطع، ونفس حرقاء حشراء على هذا الإنسان - نسأل الله العافية - كلمات لم يخسر فيها شيئًا بل ازداد رفعة، نحن نتحدث عنها بعد قرون، وبعد مئات السنين، ولو أنه بقي مع نفسه، فكيف سيكون حال هذه الصلة، والعلاقة.

ترفعوا أيها الإخوة، وارتفعوا إلى أعلى، وحلقوا، النفس يجذبها الطين، فتجردوا من الأهواء، والحظوظ النفسانية، هذا في مسائل العلم، أما في أمور المعاش، والعلاقات الاجتماعية، والتجارية، وغير ذلك مما يعايشه الإنسان صباح مساء، ولا بد أن يجد فيه ما يجد من تقصير في حقه، ومظلمة،

https://murabet.com

وإساءة، وكلمة لربما لا يتحملها كثير من الناس، فكيف يصنع؟
اسأل نفسك أنت، ولا تبحث في ذهنك، وتذهب إلى إنسان آخر، اسأل نفسك ما موقفك حينما يبلغك أن فلانًا من الناس يتكلم في حقك، ويقع في عرضك، كيف تصنع؟ هل تعزم على عداوته، ومقاطعته؟ الشافعي رحمه الله يوصينا بوصية في هذا المقام يقول إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه فإياك أن تبادره بالعداوة، لا تحكم مباشرة، وتتخذ هذا الإجراء فتقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشك، فالثقة حاصلة متيقنة، وهذا شك عارض، فلا يذهب اليقين بالشك، ولكن القه، وقابله، وقل له: بلغني عنك كذا، وكذا، واحذر أن تسمي له المُبَلِّغ، فإن أنكر ذلك، فقل: أنت أصدق، وأبر، وإذا قال: لا أنا ما قلت، فلا تحصره في زاوية ضيقة كما يفعل بعض الناس، وقل له: أنت أصدق، وأبر عندي، ولا تنقر، ولا تحقق، وتجاوز ذلك.

يقول: وإن اعترف بذلك فقال: نعم أنا قلت، فقبل أن توجه إليه سؤالًا آخر يقول: إن رأيت له في ذلك وجهًا لعذر - يعني أنت قدَّرت له عذرًا - فاقبل منه، وإن لم تر له عذر، فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ ماذا أردت بهذا الكلام الذي قلته في هذا المجلس؟ فإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر له لذلك وجهًا من العذر، وضاق عليك المسلك فحينئذٍ أثبتها عليه سيئة، زلة، ثم ماذا؟ خطأ، ثم أنت بعد ذلك بالخيار، إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى، وأبلغ في الكرم لقول الله عز وجل: "وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" [الشورى: 40]
فإن نازعتك نفسك بالمكافأة ففكر فيما سبق له لديك من الإحسان، فعُدَّها، ثم ابدر له إحسانًا لهذه السيئة، ولا تبخسن باقي إحسانه الثالث بهذه السيئة فإن ذلك الظلم بعينه. لعل القائل هو الإمام الشافعي يوصي بذلك يونس الصدفي: يا يونس، إذا كان لك صديق فشد يديك به، فإن اتخاذ الصديق صعب، ومفارقته سهل.
والمشكلة أيها الإخوة أحيانًا أن الإنسان يحمل الكلام على أسوأ المحامل،

https://murabet.com

والطرف الآخر لم يعلم بذلك، وهو خالي القلب تمامًا، ولم يخطر له على بال هذه الظنون الأخرى التي ذهب بها فلان؛ ولربما تقطع ذاك غيظًا، وحنقًا، ولم يبت تلك الليلة، والآخر لم يفكر في شيء من ذلك لا في قليل، ولا في كثير، نيته سالمة صحيحة لم يقصد الإساءة، والناس يتفاوتون في هذا، فمنهم من قد يحمل الإحسان - نسأل الله العافية - إلى إساءة، والكلمة الطيبة إلى جرح. ومنهم من يحمل الكلام الموهم، والمحتمل إلى المحامل السيئة، ومنهم من يحمل الكلام الرديء على أحسن المحامل، والله عز وجل قد فاوت بين الخلق، فكما، وزع بينهم الأرزاق، وزع بينهم الأخلاق، وقد صدق رجاء بن حيوة - رحمه الله - حينما قال: "مَنْ لمْ يؤاخِ إلا مَنْ لا عَيْبَ فِيهِ قَلَّ صَدِيقُهُ، ومن لم يرض من صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه" والإنسان ظلوم جهول، ولا بد أن تصدر منه أخطاء، وتقصير، فإذا كان ينقر معك على كل قضية، وكل كلمة، وكل تصرف، فهذا لاشك أنه أمر صعب جدًا.

الكلمات المفتاحية:

#ابن-هبيرة

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبنى جميع أفكاره.

https://murabet.com